أستاذ الشعراء يتيم

هل تعرف أستاذ الشعراء فى مصر؟ لاتتعب ذاكرتك وتستعرض أسماء شعرائنا الأحياء! فإنه ليس واحدًا منهم. لقد مات منذ حوالى أربعين عامًا.. بعد أن عاش ثمانين سنة.

بدأ حياته فى القاهرة طفلًا يتيمًا، أبوه من غمار الناس، ثم دخل مدرسة المبتديان، ومدرستى التجهيزية، والإدارة، والتحق ببعثة رسمية إلى فرنسا. فنال إجازة الليسانس فى الحقوق من جامعة إكس ليبان، وعاد إلى مصر فتقلد فيها أكبر المناصب. كان أول نائب عام مصرى. ثم محافظًا للإسكندرية ووكيلا لوزارة الحقانية (العدل)..

وفى عام ١٩٠٧ أحيل إلى المعاش.. وفى عام ١٩١٥ توقف عن نظم الشعر.. وفى عام ١٩٢٣ واجه الموت الذى طالما تساءل عن حقيقته فى حيرة وفى إيمان أيضًا..

فإسماعيل صبرى باشا كان يشك أحيانًا.. ولكنه لم يكن ملحدًا!

تعـالى الله.. لا يعـلم كنـه الله إنسـان
أتنكره؟ وأنت عليـه ـ لـو تعـلم ـ بـرهان

ويخاطب ربه قائلا:

خشيتك حتى قيل: إنى لم أثق بأنك تعفو عن كثير وترحم
وأملت حتى قيل: ليس بخائف من الله أن تشوى الوجوه جهنم

كان إسماعيل صبرى رقيقًا فى حياته، تبدو رقته فى معاملته للناس.. فهو لا ينفر منهم ولا يجرى وراءهم، وإذا عثر على صديق تعلق به فى رقة، وإذا تصدى له عدو حاربه فى رقة أيضًا..

لم يكن أحد يعرف عن أبيه شيئًا، وكان الناس فى أيامه يفخرون بآبائهم، وقد نشأ يتيمًا، لم ير أباه.. فلم يذكره، ولعله كان واحدًا من الفقراء البسطاء الكادحين. والفقر والبساطة والكدح كانت فى تلك الأيام مثار السخرية، وأحس إسماعيل صبرى أنه بلا أسرة فجعل الإنسانية أسرته يتجه إليها فى تصرفاته، وينفعل بآلامها وأحلامها، وأحاط نفسه بسياج من دماثة الخلق والتشبث بالكرامة والتجاوب مع بلاده فى عواطفها وإرادتها وأمانيها، فلم يستطع أحد أن يتسلق

هذا السياج وينال من كرامة إسماعيل صبرى أو يعيره بأنه ليس له نسب وحسب. ولقد أشار الشاعر الخالد أحمد شوقى إلى ذلك فى قصيدته التى رثى بها صبرى فقال :

قل للمشير إلى أبيه وجده أعلمت للقمرين من أسلاف
شرف العصاميين صنع نفوسهم من ذا يقيس بهم بنى الأشراف؟

قامت الثورة العرابية، وجاء الاحتلال البريطانى ليحمى عرش الخديو توفيق فى عام ١٨٨٢، وكان إسماعيل صبرى يشغل المناصب القضائية فى المحاكم المختلطة، ولم نجد فى ديوانه ولا فيما نقل رواته عنه.. كلمة تعرض فيها لثورة عرابى بخير أو بشر، وكان صبرى مثل سائر الشعراء.. يرفع إلى الخديو قصائد المدح والتهنئة فى المناسبات، ولكننا لم نعثر له على قصيدة واحدة من هذا النوع، خلال عامى ١٨٨٢ و١٨٨٣.

وبعد هذا التاريخ ظهرت قصائد يهنئ بها توفيقًا فى الأعياد والمواسم. وقد خلت قصائد التهنئة والمدح للخديو من أى تعرض بالثورة العرابية واقتصرت على التعبيرات التقليدية التى ابتذلها الشعراء من كثرة ما رددوها فى مثل هذا المجال.

وقصائد صبرى فى المناسبات الرسمية تهبط بمستواه فى اللفظ

والمعنى والذوق الفنى إلى هاوية النظامين فى عصور انحطاط الأدب العربى.. أما قصائده العاطفية والقومية، والقصائد التى بث فيها خواطره عن الحياة والموت، فإنها ترتفع به إلى ذروة الذوق والرقة والحساسية وحلاوة التعبير، وهو بهذه القصائد قد فرض أستاذيته على الشعراء وصارت له شخصية فنية منفردة تلمع فيها مخايل من خفة ظل الشاعر المصرى: البهاء زهير، ومن موسيقى الشاعر العربى القديم.. البحترى.

ولقد عاصر صبرى شاعرًا كبيرًا.. هو محمود سامى البارودى وكان البارودى قد بعث فى الشعر العربى الجزالة والفحولة، بعد فترة طويلة ظل الشعر خلالها يرسف فى المحسنات اللفظية الفارغة.

ولم يكن البارودى شاعرًا فحسب، لكنه كان أحد زعماء الثورة العرابية، وفى عام ١٩٠٩ أصدر كتابه «مختارات البارودى». فقرظه صبرى بقصيدة عبر فيها عن مفهوم الشعر عنده فقال: «شعر الفتى عرضه الثانى».

ولقد كان صبرى يحافظ على أشعاره النابعة من نفسه.. محافظته على عرضه، كان يديم النظر إليها ويصقلها وينسقها

ويخشى أن ينشر القصيدة إلا بعد ما يطمئن إليها اطمئنانًا فنيًا شاملا.

ولم يكن لصبرى منهج مدرسى فى الشعر، لكنه كان صاحب ذوق رقيق، وقد اكتسب رقة ذوقه مما قرأه للشعراء الفرنسيين والرومانسيين والتقت طبيعته المصرية الحديثة الساخرة المرحة بطبيعته المصرية القديمة الباحثة عن الروح والخلود، فكانت أشعاره تنبض بالفكرة، ولكنها لا تمس أعماقها. وكان مثل أهل عصره فى كل مكان، لا يرى للفن وظيفة إلا الإمتاع والإثارة، وتشمل الإثارة ما يتعلق بالفكر والعاطفة معًا.

وكان ولعه بالفنون محصورًا فى «الطرب» فهو يحب الأصوات الجميلة وينظم لها الأغانى باللهجة المصرية، مثل:

«الحلو لما انعطف» و«خللى صدودك وهجرك»..

وقد نظم هذه الأغانى لعبده الحامولى ومحمد عثمان، ويروى عنه أصدقاؤه أنه كان يهيم بجمال الكلمة واللحن، كان إذا أعجبه لحن، ظل يسمعه أو يردده حتى تنتهى السهرة، وإذا أعجبه بيت شعر أخذ ينشده ولا ينشد سواه إلى أن

ينام.. دخل عليه أحد زملائه وكان من رجال القضاء فقال: السلام عليكم. ومد يده لمصافحته، وصافحه إسماعيل صبرى، ولكنه لم يرد السلام، بل أخذ ينشد هذا البيت للبحترى:

ما أحسن الأيام لولا أنها ياصاحبى إذا مضت لاترجع!

وعقدت الدهشة ملامح زميله.. فكان ينظر إليه فى تعجب، ويقلب كفيه وهو يقول: لاحول ولا قوة إلا بالله!

وغادره وتوجه إلى أنطون الجميل وخليل مطران وحافظ إبراهيم، وكانوا يجلسون فى أحد المقاهى، وأخبرهم أن إسماعيل صبرى أصيب بجنون، وسألوه: كيف؟! فروى لهم ما حدث وتوقع منهم أن يحزنوا.. فإذا هم يضحكون، وأفهموه أن إسماعيل إذا أعجبه بيت من الشعر يظل يردده حتى ينام.. فقال وماذا تسمون هذا؟ وقبل أن يجيبوا أجاب هو قائلا: هذا جنون!! وتركهم غاضبًا..

وكان واضحًا فى حياة إسماعيل صبرى بغضه للاحتلال البريطانى ومساندته للمعركة الوطنية الشعبية التى يتزعمها مصطفى كامل، وعندما كان صبرى محافظًا للإسكندرية، أراد الزعيم الوطنى أن يعقد هناك اجتماعًا عامًّا يلقى فيه خطابًا

سياسيًا، فأرسلت نظارة الداخلية تعليماتها إلى المحافظة بإلغاء الاجتماع، واحتج إسماعيل صبرى على هذه التعليمات وقال: أنا المسئول عن الأمن فى محافظتى.. ورخص بعقد الاجتماع وألقى مصطفى كامل خطابه التاريخى.. ولما مات مصطفى كامل.. رثاه إسماعيل صبرى بقصيدة باكية..

وظل مصطفى فهمى باشا يرأس الوزارة حوالى سبعة عشر عامًا، وكان متهمًا بمهادنة الاحتلال، فلما استقال عام ١٩٠٨ نظم إسماعيل صبرى أبياتًا هجاه بها وعدة مقطوعات تناولت بالتجريح كل الوزراء الموالين للاستعمار، كان يدعو الشعب إلى إقامة حكم نيابى، ويحمل على الاستبداد، وقد أشاد بآثار مصر وحث المصريين على لسان فرعون أن ينهضوا ويستعيدوا مجدهم، وذلك فى قصيدته الكبيرة:

لاالقوم قومى ولاالأعوان أعوانى　　إذا ونى يوم تحصيل العلا وانى
لاتقربوا النيل إن لم تعملوا عملا　　فماؤه العذب لم يخلق لكسلان

وقد دعا إلى الوحدة بين الأقباط والمسلمين، وكان له دور كبير فى القضاء على الفتنة التى اشتعلت عقب مصرع بطرس غالى باشا، وفى ذلك يقول:

دين عيسى فيكم ودين أخيه أحمد يأمراننا بالإخاء
مصر أنتم ونحن إلا إذا قامت بتفريقنا دواعى الشقاء
مصر ملك لنا إذا ما تماسكنا وإلا فمصر للغرباء

وهو يحارب الزواج من اثنتين ويدعو إلى تعليم المرأة، وفى ذلك يقول :

« نحن فى حاجة إلى تعليم أبنائنا وبناتنا، بل إن حاجتنا إلى تعليم بناتنا أشد، لأن بنت اليوم أم الغد، وحضن الأم فى نظر العاقل مدرسة أولية يتلقى فيها الطفل المواد الأولى لغذاء جسمه وعقله، ولأن النساء نصف مجموع الأمة، وهيهات أن ينهض مجموع نصفه أشل ».

وهذه الآراء تتفق مع دعوة قاسم أمين، ومع ذلك لم يتعرض إسماعيل صبرى فى شعره، مرة، لقاسم أمين. ولا لدعوته ولم يرثه عندما مات !! وكانت تربطه بسعد زغلول علاقات غامضة !! فلم يهاجمه عندما كان وزيرًا فى وزارة مصطفى فهمى، وداعبه بتجريح بعدما تولى وزارة المعارف فى الوزارة التى أعقبت وزارة مصطفى فهمى..

ولما قامت ثورة ١٩ بزعامة سعد زغلول.. كان إسماعيل

صبرى قد سكت عن نظم الشعر تمامًا.. لا أحد يستطيع أن يعرف على وجه التحديد رأيه فى الثورة ولا فى الأحداث التى أعقبتها..

وكان صبرى يقول: أحب التوحيد فى ثلاثة: الله.. المبدأ.. والمرأة.. وأحب الحرية فى ثلاثة: حرية المرأة فى ظل زوجها، وحرية الرجل تحت راية الوطن، وحرية الوطن فى ظل الله.

وبرغم ترفع إسماعيل صبرى عن المهاترات، شارك فى هجاء الكاتب الكبير محمد المويلحى بعد ما صفعه أحد الأعيان على وجهه عام ١٩٠٢.. وكان ينشر قصائده الهجائية باسم مستعار.. وكانت جريدة المؤيد تنشر قصائد الشعراء ضد المويلحى.. بدافع الخصومة القائمة بين صاحبه على يوسف ومحمد المويلحى صاحب جريدة «مصباح الشرق»..

وتتجلى العذوبة فى الأشعار العاطفية التى نظمها صبرى.. يقول:

أترى أنت خاذلى ساعة التوديع ... يا قلب فى غد أم نصيرى
ويك! قل لى: متى أراك بجنبى ... راضيًا عن مكانك المهجور؟

ويقول :

أقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة ... ولا بشافعة فى رد ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنًا ... حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا

وقد تضمن ديوانه مساجلة بينه وبين إحدى الأديبات، ولم نستطع أن نعرف من هى هذه الأديبة.. إنها ليست الكاتبة «مى».. فلم تكن تنظم الشعر، وليست على ما نظن «باحثة البادية»..

تقول الأديبة المجهولة :

فديتك يا هاجرى ... فهل ترتضى بالفدا؟
سهرت عليك الدجى ... ونمت ولكن سدى!!

ويقول لها صبرى :

أهاجرتى أطفئى ... لواعج لاتنتهى
مضت فى هواك السنون ... وما نلت ما أشتهى

وترد عليه :

زمانك قبلى انتهى ... ولا يرجع المنتهى
فحسبى أن أزدهى ... وحسبك أن تشتهى

وتحس المرارة فى أشعاره التى يتحدث فيها عن الموت يقول :

إن سئمت الحياة فارجع إلى الأر ض.. تنم آمنًا من الأوصاب
تلك أم أحنى عليك من الأ م التى خلفتك للأتعاب
لاتخف فالممات ليس بمحاح منك إلا ماتشتكى من عذاب
وحياة المرء اغتراب. فإن ما ت... فقد عاد سالما للتراب

وتلمس توجسه من الله خوفًا وهو يخاطبه قائلا :

يا عالم الأسرار حسبى محنة علمى بأنك عالم الأسرار

وقد اشتدت عليه وطأة المرض فزفر هذين البيتين :

يا موت هأنذا فخذ ما أبقت الأيام منى
بينى وبينك خطوة إن تخطها فرجت عنى

وفى يوم ٢١ مارس من عام ١٩٢٣ خطا إليه الموت وأخذه. أخذه جسدًا.. وأعطانا روحه وذوقه وفنه..